‘Yandoto Academic Journal of Arabic Language and Literature
ISSN: 2714-4712 (Print & Open Access)
https://easpublisher.com/journal/yandoto/home

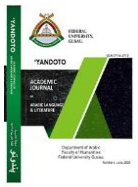

عصر الانحطاط ودوره في تكوين أدباء نيجيريا خلال القرن التاسع عشر الميلادي

إعداد:

إدريس الزبير التُنْغَاوِي، يعقوب يحيى عبد الله

ملخص المقالة:

يستهدف البحث إلى تقويم الشعر العربي النيجيري خلال القرن التاسع عشر الميلادي، عن طريق إيجاد الصلة بينه وبين بعض مصادره التي تعود إلى العصور الوسطى، يفيد القارئ بمعلومات عن تاريخه المتوغّل في القدم، ويوفره بأفكار عن بعض الظروف التي تحيط به، والعوامل التي عملت في تشكيله، وبعض القنوات التي مر من خلالها في طريقه إلى الاستقرار، علما بأن ذلك أدعى إلى الانصاف له عند الحكم وحسن تذوقه عند المطالعة. ويعتمد البحث أساسا على الموضوعات الآتية: تحديد عصر الانحطاط، آراء النقاد والباحثين في قضية الانحطاط، تفاصيل عن الروابط والصلات بين نيجيريا والممالك التركية، صور من نصوص "عصر الانحطاط" وأثرها على الأدباء النيجيريين خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

Abstract:

The research aimed at evaluating the Nigeria Arabic poetry in the 19^{th} century A.D by tracing its sources, some which are rooted as far back in the middle ages. It will therefore provide reader with vivid information on the Nigerian Arabic poetry History; its background, the factors surrounding its formation and the channels through which it attained glory. This will serve as bases for its admiration and assessment with justice. The article dwells mainly on the delimitation of the middle ages. Opinion of the critics on the literary decline at the period, some details on Nigerian relationship with Turkish emirates at the time, sample of medieval texts as to their impact on the Nigeria Arabic literary works of the 19^{th} century A.D.

© 2021 | Published by https://easpublisher.com/journal/yandoto/home

مقدمة:

ومن المعروف أن البلاد العربية قد مرت على عصور ذهبية ازدهر فيها العلم والأدب كالعصر العباسي والأندلسي وما أشبهه. ففي تلك العصور ارتفع شأن الفنون، ونفقت سوق الأدب، وراج الشعر وطرق مخلفة الموضوعات والأغراض، وجاء بمعان مبتكرة، وأخيلة لطيفة، واتسع من ترات الأدب العربي، زخط أسماء رجال من أصحاب في صفابة في صفحات التاريخ الخالد.

وإن كان هناك في تاريخ نيجيريا الثقافي المدون مدة يمكن تسميتها بالعصر الذهبي فالقرن التاسع عشر أحق بهذه التسمية، وذلك أنها لم تظهر بأدباء في تاريخها قرضوا الشعر وأجتادوه في مختلفة الموضوعات إلا في هذه المدة. حسب المعلومات المتوفرة لدينا فإن نيجيريا لم تعرف الشعر العربي المحلي بمفهومه الفني إلا في القرن التاسع عشر الميلادي. والموجود قبل ذلك عبارة عن منظومات علمية، كنظم السنوسية الكبرى للشيخ الطاهر إبراهيم فيرم، ومنظومة الأخضري للشيخ محمد بن عبد الله البرناوي، ومنظومة عطية المعطي للشيخ عبد الله ثقة وما أشبه ذلك.

ومن المعروف أن القرن التاسع عشر يتميز بكثرة التأليف والتصنيف، يذكر أن عثمان بن فودي وحده ألف ما لا يقل عن مئة كتاب رسالة، وألف محمد بلوثلاثة وتسعين كتابا ورسالة، ولعبد الله بن فودي خمسة وثمانين تقريبا، على أن هناك إسهامات في التأليف لوزير غطاطو، والشيخ محمد البخاري وغيرهما من العلماء المجاهدين. وقد تعرض (موري لاست) لذكر مؤلفات هذا العصر في مقدمة كتابه وعد مئات من الكتب، يدل على ازدهار هذا العصر في مجال الفكر. والحق إن العلم قد ارتفع إلى متسوى يساوي كل قطر إسلامي ينسب إلى العلم والمعرفة في البلاد العربية يومئذ[١].

والذي نتمنى تحقيقة في إطار هذا البحث هو أن أدباء نيجيريا مع مدى ما وصلوا إليه في ذلك العصر كان أكبر اعتمادهم على مؤلفات العصر الموصوف "بالانحطاط" في مجالي العلم والأدب. والمطالع في إنتاجاتهم من شعر أو نثر يرى أن معظمها وضعت على ضوء كتاب معين من الكتب المؤلفة خلال العصر المملوكي أو العثماني، فصار من اللازم أن نهتم بهذا العصر ونتأكد من مدى صحة هذا الإطلاق. نعم – لقد أقتبسوا من عصور أخرى لكن ذلك ضئيل بالنسبة إلى ما أخذوا من هذين العصرين المعروفين عند بعض العلماء والباحثين "بعصر الانحطاط".

تحديد عصر الانحطاط

عصر الانحطاط عبارة عن العصور الوسطى في تاريخ الإسلام، وهي مدة ما بين سقوط بغداد على يد هولاكو (١٢٥٨م) (٦٥٦هـ) ووصول نابليون إلى مصر عام ١٧٩٨م. ويمكن– لغرض التفصيل – تقسيم هذا العصر إلى مدتين:

المدة الأولى: تبدأ بسقوط بغداد وتنتهي بالاستيلا سليم الفاتح على الشام ومصر. وهي مدة ما بين سنة ١٢٥٨م الموافق لـ (٩٢٢-٦٥٦هـ) وتعرف هذه المدة بالعصر المملوكي.

والمدة الثانية: تمثل العصر العثماني، وهي ما بين حكم سليم الفاتح سنة ١٥١٦م وحملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨م[٢].

ومما لا ينبغي تجاهله في هذا الصدد أن هذه التسمية لم تخل من معارضة من قبل بعض الباحثين والدارسين. ربما وصف من وصف هاتين المدتين بالانحطاط لما أصاب اللغة العربي خلالهما من أسباب الركود والإضمحلال والوهن، وذلك لأن أمر العرب والعروبة – على حد قولهم – أخذ في الانحدار والانحطاط في بغداد منذ أن غلبت الفرس والأتراك على أمر سادتهم العرب، وزادت الطين بلة الحروب بين الشيعة والسنة، وبقي أمر الأمراء على تلك الحال حتى أدركهم هولاكو، وسل السيف على أعناف أعيانهم، من السلاطين والأمراء وخيار الكبار والصالحين. وهذه المصائب بجملتها لم تقتصر على بغداد، وقد قام الصليبيون بدورهم في الفساد بالشام والإفرنج بالأندلس[٣].

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك كله ما يأتي:

١- أن انقض بنيان العلم والأدب خلال هذه العصور لغلبة الاضطراب وكثرة الفتن وسوء الحكم مما أودى بجزء كبير من التراث العربي الغالي، وضاعت المصادر النفيسة.

٢- علاوة على هذا فإن حكام تلك العصور كانوا يتصفون بالظلم والإرهاق فأثقلوا كواهل الناس بالضرائب، وحالفت حياة الأمة أنواع من الضنك والقلق، فنتج عن ذلك زوال أسباب نهضة الأدب، وتجمدت الينابيع السائلة في القرائح بأنفس القريض.

٣- سادت العجمة في البلاد وشابت بها الألسنة؛ لأخذ الأعجم بزمام الأمور. وبحلول العصر العثماني انحطت الأمة الإسلامية إلى الدرك الأسفل من العجمة، إذ ألغي ديوان الإنشاء، وحلت التركية محل العربية كاللغة الرسمية، فأثر ذلك في الفكر والعلم والأدب، وأهمل الشعر العربي وشعرائه[٤].

وفي الوقت ذاته نعترف بدور الأيوبين والمماليك في الشام ومصر فقد كان لهم الفضل الأكبر في صيانة العلم وإكرام أهله، ونصرة دين الله والذب عنه وعن الأمة، وهم الذين صانوا الخراسان وفارس والعراق ومصر من غارات المغول، وشجعوا العلماء على التأليف والتصنيف حرصا على إعادة ما أباده التتار، فألف العلماء وكتبوا المتون والشروح والحواشي، ووضعوا كتبا كثيرة في مختلف الميادين

© 2021 | Published by https://easpublisher.com/journal/yandoto/home

العلمية، بل نكاد نزعم أن ليس هناك عصر في تاريخ الإسلام يساوي هذا العصر أو يدانيه في مجال التأليف والتصنيف، لدرجة أن العلماء يطلقون عليه عصر الإحياء، فهو بحق عصر تصنيف الموسوعات بشتى أنواعها، واختلاف موضوعاتها.

بناء على هذا أصبح لهذا العصر ميزان متناقضيتان وهما: أنه يتصف بالركود والجمود من جهة، كما يتصف بكثر التأليف والتصنيف من جهة أخرى، ومن ثم اختلف النقاد والباحثون في شأنه، وتباينوا في الحكم عليه، وبرْهن كل في تأييد مذهبه.

عِيب هذا العصر – من جانب المعارضين – بقلة الإبداع والابتكار، وكان كثير من مؤرخي الأدب العربي إذا كتبوا لا يلتفتون إلى هذا العصر، وإن التفتون إليه جردواله سهام النقد. فقد عقد حنا الفاخوري بابا لهذا العصر ولم يذكر له مزية. وممن بالغ في تشنيع هذا العصر ونقده السيد أبو الحسن الندوي وهو يزعم أن القرن التاسع الميلادي هو آخر قرون النشاط والوليد والابتكار في الدين والأدب والشعر والحكمة، والقرن العاشر أول قرون الجمون والتقليد والمحاكة.ومما قال في حملاته على هذا العصر:

"أنك ترى هذا الجمود عاما شاملا للعوم الدينية والفنون الأدبية الشرعية والإنشاء والتاريخ ومناهج التعليم، فلا تجد في كتب التراجم التي ألف في العصور الأخيرة من تطلق عليه لقب العبقري أو النابغة والمحقق على الأقل، أو من جاء في فنّ من الفنون بشيء طريف مبتكر أو في العلم زيادة، إذا استثنينا بعض الأفراد العالم الإسلامي..." وذكر عددا منهم[٥].

لا ينكر هذا الناقد اهتمام علماء هذا العصر بالتأليف، وإنما ينكر عبقريتهم، وجل ما فيهم – حسب رأيه – تقليد وتكلف، ولما عجزوا عن الابتكار أقبلوا على الحواشي، والتقريرات والتلخيصات مع ما في أساليبهم من الغموض كأنهم – على حد قوله – "ألفوا في صناعة الاختزال". وهذه آية ظاهرة من آيات الانحطاط الفكري.

ولما التفت إلى جانب الأدب، شعره ونثره قال: "ولانقرأ في شعر هذه العصور الأخيرة على كثرة ما نظم وقيل فيها شعرا مطبوعا يعلق بالذهن أو إنشاء مترسلا ينشرح له الصدر، ترى أدبا فاترا باردا قد أفسده التأنيق في الحلية اللفظية، والمبالغة والتهويل في المعاني، وكثرة التملق في المدح، والغزل بالمذكر في الشعر، والتكلف حتى في الرسائل الإخوانية، والأغراض الطبيعية، والسجع البارد حتى في كتب التاريخ والتراجم"[٦].

وغالب نقاد هذا العصر إنما ينقدونه على أساس الكيف لا الكم، وذلك الابتذال في اللفظ، والتغلغل في الصنعة، والخروج عن الإعراب، والعبث بالمعاني، وكثيرا ما تجد المعاني ضائعة بين سجع وتورية وجناس.

وهذه هي أهم مميزات هذا العصر وأظهر سماته، على شعور ولايكشف عن خاطر، لكنه بكاء بغير حزن، وضحك في غير عجب، وغزل بغير حب، يصف الشاعر الخمر وما شرب، ويفتخر وما للفخر موجب"[٧].

يقول الدكتور شوقي: "لا نستطيع أن نقول إن الشعر انعدم في العصر العثماني فقد كان موجودا، ولكنه وجود خير منه العدم، إذ اقتصر الأمر على جماعة يقرؤون بعض القصائد الموروثة وخاصة التى كانت قريبة من عصورهم، ثم يعارضونها أو يخمسونها أو يربعونها، فيأتون بنماذج لا روح فيها ولا جمال، إنما هي تقليد ركيك ضعيف، ومن أين يأتيها الروح أو يأتيها الجمال وهي تصدر تعن نفوس مجدبة"[٨].

وإذا كان هؤلاء صادقين فيما يقولون لكن لا يخفى ما فيه من غلو،ومهما كان الأمر فإن هذا العصر ما عدم من محب يدافع عنه ضربات الناقدين وسهام الطاعنين. وقد أفرد الباحثون من الكليات والجامعات، ولا سيما في بلادنا هذه، وفي غضون هذا العصر الراهن، مقالات عاودوا فيها النظر في قضية الانحطاط وعوامله، من بين مفرط في الدفاع عنه ومنصف. لكن جل ما في هذا الدفاع تركيز على المؤلفات والمصنفات الجمة أبرزها علماء ذلك العصر إلى خير الوجود، والإشارة إلى بعض الشخصيات شهدت لهم البرية بالعبقرية وعلو الكعب ممن عاشوا خلال تلك الفترات الطويلة، مثل ابن خلدون، وابن فضل الله العمري، والقلقشدي، وابن منظور، وغيرهم ممن ساهموا في المجال الفكري. وكشيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام السيوطي في العلوم الدينية. وابن هشام في اللغة. وابن المصرى وصفي الدين الحلي والبوصيري في الشعر.

قال عمر الطيب السياسي: "أي منصف ينظر إلى ما تركه رجالات تلك الفترة من آثار عملية وأدبية نظرة علمية لا تتأثر بالأحداث السياسية وحدها، يرى أن تك الفترة أنجبت عباقرة من العلماء والأباء، تركوا بصماتهم العلمية والأدبية واضحة ليس في التاريخ العربي وحده، بل وفي التاريخ الحضاري للإنسانية كلها"[٩].

وقال أحمد أمين الإسكندري وغيره:"فمن يستطع أن يقول إن ابن خلدون في مقدمته مقلدا، ومن يجترأ أن يدعي أن المقريزي في خططه لم يكن إلا نساخا، ومن يظن أن ابن خلكان في وفياته لم يكن محققا بعيد المدى، وهل يشك إنسان في اجتهاد ابن مالك والشاطبي وابن هشام المصري في علوم اللغة؟، وهل لا يحق بهذا العصر أن يفتخر بمثل ابن منظور صاحب لسان العرب؟ ولو أردنا أن نحصي الكتب الجليلة الشأن في هذا العصر لوجدنا عددا غير قليل"[١٠].

كان للدكتور أولاليري أديغون مقالةٌ في الدفاع عن هذا العصر بعنوان: "إعادة النظر في الأدب العربي في العصر المسمى عصر الانحطاط"[١١]. ولعبد اللطيف إبراهيم مقالة كذلك في الموضوع نفسه بعنوان: "إعادة النظر في عوامل انحطاط الأدب العربي في العصر التركي"[١٢]. ولسنا بجاجة إذًا إلى الإطالة في هذا الصدد.

© 2021 | Published by https://easpublisher.com/journal/yandoto/home

والإفراط في تأييد هذا العصر خطأ، والإمعان في إنكار محاسنه جور، والإنصاف هو الوقوف موقفا وسطا، وهو أن هذا العصر له ظروف وملابسات تخصه. وهي أنه لا يوجد قبله من يتصدى للعلم أو الأدب أو أي فن من الفنون إلا من كان له فيه حظ وافر. لا تكاد تجد في العصور السابقة للعصر التركي متشاعرا أو كاتبا مختزلا. ولما اكتسحت هذه الأمة كوارث عبثت بالتراث العربي انكب العلماء على عمل جاد للإعادة ما اندرس وإصلاح ما فسد، ومن ثم تحقق ما يأتي:

أولا: تدخل السلاطين والأمراء والوزراء من المماليك في الشأن عن طريق إغداق العطايا للعلماء وجعلهم في مناصب الوزراء وغيرها تشجيعا لهم على الإنتاج والتأليف.

ثانيا: وقعت المنافسة بين علماء مصر والشام وأراد كل من هؤلاء وهؤلاء أن يحتل المركز الأول في مجال التأليف والحركة الأدبية.

من أجل هذا كله أصبح الأدب حرفة الجميع، وصار الشعر مطية كلي عاجز ومغرور، وتصدى للتأليف من ليس بأهل، وتدخّل في الحركة من ليس له زاد بضاعة، وطال العصر لمدة قرون فرجح من خلالها عدد الضعاء على عدد المجدين الأكفاء تهوغلب جانب الإيجابيات، فعمد النقاد إلى العصر برمنه فسلبوا عنه لباس الحمد، وأطلقوا عليه النقد، حتى أصبحت هذه التسمية "الانحطاط" عامة شاملة على جميع العصر، تطلق فتشمل جميع أفراده من صحيح وسقيم ومن صالح وطالح[١٣].

بناء على هذا لا يوصف العصر بالازدهار كما لا يوصف بالانحطاط بل يوصف بهما جميعا. مهما يكن من أمر هذا العصر، فإن له في تاريخ نيجيريا الثقافي بصفة خاصة وتاريخ غرب إفريقيا بصفة عامة منزلة تجل عن الوصف، وله يد لا تجب في تكييف العلم والأدب في المنطقة حتى أوائل القرن العشرين. ازدهرت نيجيريا ثقافيا وأدبيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وصنف العلماء من خلاله مئات الكتب في شتى الميادين، وأنهم استفادوا كثيرا من تأليفات العصر المملوكي والعثماني. فقد اقسبوا من أفكارهم، وصاغوا الشعر على منوالهم، وألفوا على منهجهم. وعلى سبيل المثال كان لعبد الله بن فودي كتاب سماه: "المفتاح" اختصر فيه "لباب الإتقان" لليسوطي. وله "ألفية الأصول" استخرجه من نظم التلمساني المعروف بـ"المكنون في قواعد الأصول". وفي العربية له: "البحر المحيط" نظم فيه "جمع الجوامع وهمع الهوامع" للسيوطي. وله "حصن الرصين" وهو عبارة عن نظم "مواد القاموس". وقد اختصر كذلك "المدخل" لابن الحاج وسماه "لباب المدخل". ومن مختصر الخليل نظم منظومته وسماها "ضوء المصلى" وله كتاب آخر "منن المنان" استمده من كتاب السيوطي في التصوف... وهكذا[١٤].

وإذا التفتنا إلى مؤلفات أخيه عثمان بن فودي وجدناها كذلك، نذكر على سبيل المثال كتابه المسمى بـــ"طريق الجنة" لخصة من كلام الإمام الغزالى. و"تعليم الإخوان بالأمور التي كفرنا بها ملوك السودان" جمع المؤلف مادته من كتاب "مصباح الأرواح في أصول الفلاح" للمغيلي. وله كتاب مشهور "إحياء السنة وإخماد البدعة" فبجانب صحيح البخاري استفاد المؤلف في تأليف هذا الكتاب من "رسالة أبي زيد القيراوني" "ومختصر الخليل بن إسحاق" و"النقاية" للسيوطي وغير ذلك من الكتب. وهناك "حصن الأفهام من جيوش الأوهام" لخص هذا الكتاب من "الكوكب الساطع" للسيوطي، و"إحياء علوم الدين" للغزالي و"مدخل" لابن الحاج[١٥].

ومن مؤلفات محمد بلو بن عثمان هناك "كف الإخوان عن إتباع خطوات الشيطان" اعتمد المؤلف فيه على "إحياء علوم الدين" للغزالي وبعض مؤلفات المغلي. وكتاب "البدور المسفرة في الحصال التى تدرك بها المغفرة"، تحدث فيها عن المغفرة، واقتبس من آراء ابن الجوزي والنووي وابن الحسن الشاذلي. ولو تتبعنا مؤلفات هذا العصر لوجدنا معظمها على هذا المنوال[١٦]. وهذه الأمثلة كثيرة.

والذي يحدث في ساحة التأليف والتصنيف هو نفس ما يحدث في ساحة الأدب نفسه. وقد اعتمد الشعراء النيجيريون على الشعر المملوكي والتركي في إنشاء قصائدهم – وهو صلب موضوعنا وسوف نتعرض له بنوع من التفصيل في ما يلي بإذن الله.

الروابط والصلاة بين نيجيريا زالممالك التركية:

لا غرو أنه يتأثر علماء نيجيريا بالعصر المسمى بعصر الانحطاط، لأن هناك جميع العوامل عبر التاريخ سببت التفاعل بين نيجيريا والسودان الغربي في جانب، وبين المماليك التركية في جانب آخر. وذلك أن هناك علاقة تجارية متوغل في القدم في تاريخها بين بلاد السودان الغربي وبين مصر والمغرب، على أن قيام دول المماليك والأتراك العثمان صادف بالفعل دخول الإسلام في المنطقة الواقعة وراء الصحراء الكبرى. والمعروف أن الإسلام دخل في بلاد غرب إفريقيا بدءا من المماليك الصحراوية الواقعة على حدود السودان الغربي، مثل مملكة(أودغست) في القرن العاشر الميلادي تقريبا. ثم تسرب إلى دول غرب إفريقيا من القرن الحادي عشر الميلادي، من مثل (مالي) و(صنغي) ومملكة (كانم برنو). وهو المماليك السودانية هي التي لعبت الدور الفعال في نشر الإسلام وثقافته في كافة بلاد السودان وعرفه الناس في كل صوب وحدب بما في ذلك بلاد الهوسا منذ القرن الرابع عشر الميلادي[١٧].

والعلاقة التجارية بين منطقتي السودان الغربي وشمال إفريقيا التي نشأت منذ عدة قرون قبل الإسلام، بل قبل ميلاد المسيح، إنما اتسعت في نطاقها بدخول الإسلام. وذلك أن العلماء الحجاج والطلبة وعلى رأسهم

© 2021 | Published by https://easpublisher.com/journal/yandoto/home

التجّار والرحال جعلوا يترددون بين السودان الغربي وبين المماليك الإسلامية عن تلك الخطوات التجارية عبر الصحراء. وبجانب البضائع والسلع كانوا يحملون معهم الكتب الدينية واللغوية من فقه وتفسير وتاريخ ولغة وأدب وغير ذلك من الفنون. ومما وصل إلينا من المماليك التركية فيما بين القرن الرابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وصار في جملة ما كون المصادر العلمية لعلماء السودان، وشكل المناهج الشعرية لأدبائها ما يلي:

أولا: كتب دينية ولغوية: مثل قصائد الشعراء الجاهليين ولا سيما المعلقات وإنتاجات أواخر العصر العباسي وخاصة المقامات التي لها منزلة عظيمة بين علماء نيجيريا، وقلما تجد عالما لم يتقنها ويعلم معانيها. وإنما أعجبتهم المقامات لما فيها من محسنات لفظية ومعنوية، وقد تأثروا بهذه الأساليب في إنتاجاتهم. ومنها عدد لا يحصى من كتب علماء العصر التركي، ومن أهمها البردة البوصيرية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة النبي هشام لابن، والعشرينيات لأبي زيد عبد الرحمن يخلفتن في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، هذا كله في ساحة الأدب. وفي مجال علوم الدين واللغة وصل إليهم كتب جمة في التفسير والفقه والحديث والتصوف والنحو والبلاغة والعروض والتجويد، والعدد الأكبر من هذه صدرت عن مكتبة الشيخ السيوطي وكتب الفقه المالكي. وهذه الكتب بجملتها هي التي كونت ثقافة العالم والأديب النيجيريا في القرن التاسع عشر الميلادي[١٨].

ثانيا: الحركة الصوفية: ومما وصل نيجيريا خلال تلك السنوات الحركة الصوفية. فقد كانت الأمة الإسلامية في الشرق والأوسط منذ سقوط بغداد تعاني من شدة الحياة، فصار ذلك من صوفية رواج التصوف والزهد بين الناس، فأصبح المغرب ومصر على مر الزمان مراكز صوفية، وغلبت القادرية والشاذلية في المغرب. ولا يخفى عن ذاكرتنا أن رواق أهل هذه المنطقة ما زالت موجودة في الأزهر وفي بلاد المغرب حتى ذلك الحين، وإنه من الطبيعي أن يفد إلنيجيريا شيء غير قليل من أثر تلك الطرق بواسطة الخرّجين والطلبة[١٩].

ومن المعروف أن للمدائح النبوية منزلة عظيمة بين المتصوفين وأصحاب الطرق لذلك أصبحت المدائح مصدرا هاما لعلماء نيجيريا في القرن التاسع عشر. قد أقبلوا عليها من بين معارض وحاك.

ثالثا: المنهج التعليمي: تأثر العلماء النيجيريا في القرن التاسع عشر بالعصر التركي وبكل ما فيه من علم وأدب لاتحاد منهجهما العلمي. ذلك المماليك التركية في مصر قد اشتهرت بتشجيع حركة العلم وإنشاء المدارس والمكاتب، وإليهم ينسب هذان المنهجان العلميان وهما: منهج المدارس القرآنية الكتاتيب، ومنهج

المدراس العلمية. والأزهر يندرج تحت المنهج الثاني، على أنه لشهرته ودوره في العالم الإسلامي قد صار قدرة في جميع الأقطار العالمية حينئذ. وكان جامع سنكوري في تمبكتو خير مركز يشبه منهج الأزهر في بلاد السودان الغربي. والمدراس العلمية الموزعة في غرب إفريقيا ما بين القرن الرابع عشر والتاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين كانت تجري على نمط هذين المنهجين العلميين وكانا يعرفان في بلاد الهوسا بـــ "MakarantunAllo da nallimi"[٢٠].

إن دل هذا على شيء فإنما يدل على اتصال عملي وثقافي بين نيجيريا والممالك حتى القرن التاسع عشر الميلادي، ولا غرو إذًا أن يصير الأخير مصدرا لأول في العلم والأدب.

ومما يذكر في هذا الصدد أن انحدار العلماء والوفود العلمية من المماليك السودان المجاورة ومن المماليك التركية، مثل المغرب ومصر والكتب الجمة التي أتوابها لم تعمل في النهضة كافة[٢١]. ويبدو أن الشعر الفني العربي المحلي بدأ يظهر من القرن التاسع عشر الميلادي. وقد رأينا فيما سبق كيف قام علماء القرن التاسع عشر بالعمل الجاد نحو تلخيص الكتب والاقتباس منها لتقريب فهمها إلى أذهان التلاميذ الأهلي. وهذا بجملته يشعرنا بأن ثقافة علماء نيجيريا حتى أواخر القرن التاسع عشر ليست أكثر من عمل مستمر وتيار متواصل من الممالك التركي كجسد واحد.

صور من نصوص "عصر الإنحطاط" وأثرها على الأدباء النيجيريين:

١- بردة البوصيري في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.

والموضوع الغالب في الشعر العربي منذ أواخر العصر الأيوبي إلى مطلع العصر المملوكي هو شعر المدائح النبوية، لشدّة الحياة وضنكها، وكانوا ينظمون غالبا على البحر البسيط مع التزام البديع على أن يأتي كل بيت من القصيدة بنوع بديعي خاص، ومنشأ هذه البديعيات على قولهم بردة البوصيري الشهيرة ومطلعها:

ومما قال فيها:

ومن يكن برسل الله نصرته * إن تلقه الأسد في آجامها تجم

ولن ترى من ولي غير منتصر * به ولاعدو غير منتقم

أحل أمته في حرز ملته * كالليث حل مع الأشبال في الأجم

كفاك بالعلم في الأمي معجزة * في الجاهلية والتأديب في اليتم

© 2021 | Published by https://easpublisher.com/journal/yandoto/home

والنفس كالطفل إن تحمله شب على * حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فاصرف هواها وحاذر أن تواليها * إن الهوى ما تولى يصم أو يصم

وراعها وهي في الأعمال سائمة * وإن هي استحلت المرعي فلاتسم[٢٢]

لأجل شهرة هذه القصيدة من حيث الروعة العاطفية نالت قبولا واسعا بين الناس عامة وبين الشعراء خاصة. ففتحت بابا أكثر الناس فيه من المدائح النبوية واتخذوها نموذجا ينسجون على منواله، ويعارضونها بقصائدهم في الوزن والقافية، لكنهم لم يبلغوا شأوها.

وكان ممن قام بقسط غير قليل من تلك المحاكة والمعارضة أدباء نيجيريا. وكان للشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم صاغها على منوال بردة المديح. ويعد المغيلي هذا من رواد الثقافة العربية في نيجيريا، يقول في قصيدته:

بشراك قبلي هذا سيد الأمم * وهذه حضرة المختارة في الحرم

وهذه الروضة الغراء ظاهرة * وهذه القبة الخضراء كالعلم

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي * فالعبد ضيف وضيف الله لم يضم

ياصفوة الله يا مولى مكارمة * عمت على الخلق من طفل ومن هرم

وقد أتيتك أرجو منك مكرمة * وأنت أهل الرضى والجود والكرم

يا أحمد يا أبا بكر ويا عمر * نزيلكم في أمان غير منهضم [٢٣]

وجاء الشيخ عبد الله الثقة من بعد المغيلي وصنف منظومة بعنوان "عطية المعطي" التي تقع في نحو ألف وخمس مائة بيت. وكانت بجملتها موضوعة على وزن بردة البوصيري وقافيته. وتشمل على شتى الأبواب من عقيدة وصلاة وصوم وأخلاق والمديح النبوي، ومما قال في المديح:

يارب صل على من جاء بالبشرى * وبالنذير وبالقرآن والحكم

وقد اقتبس من ألفظ بردة البوصيري ومعانية إذ قال:

يوم الولادة حزن الكافر به * لم يبق شيء من الإيوان والصنم

رأس الورى المصطفى لولاه ما خلقت * دنيا وآخرة مع جنة النعم[٢٤]

لم يكد يحل القرن التاسع عشر حتى صار لكل عالم أوشاعر قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه سلم هذا لأنهم لم يكونوا يعدون المديح النبوي فنا من الفنون فحسب بل قرب وعبادة، من ذلك قول محمد بلو.

منذ ألهمت قسطا من مدائه * قد فزت فوزا ومن يمدح يغتنم[٢٥]

وهذا، لما أصبح البوصيري ذا مكانة بين علماء نيجيريا لز عامته في هذا الفن وحامل رايته، خص محمد بلو بن عثمان قصيدة ووضعها على نمط البردة وزنا وقافية ومدحه بها ومطلعها.

ما بال عينيك طول الليل لم تتم * تبكي دما بدموع فيض مسنجم

وفيها يقول في حق البوصيري:

أعظم بما نال من محمد ومن كرم * ومن عطايا من المولي ومن نعم

هو المحب الكبير الشأن إن له * في العاشقين مقاما راسخ القدم

حب النبي وخادمه وشاعره * أعظم بما نال في الأمداح والخدم

إذ حاك بردة خير الخلق حين حكى * نسخ لكعب فكانت بردة الكلم

أهلا بصنهاجة شرفت بطلعته * من ينتمي لذوي الأقدار والكرم[٢٦]

وكان لعبد الله بن فودي كتاب مستقل لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وسماه: "الروض العشق في مدح سيد العباد"، وهي منظومة مخمسة ومطلعها:

قل مستعينا بالإله الماجد * في كل أمر للحديث الوارد

متعوذا من كل مار مارد * حمدا وشكرا للإله الواحد[٢٧]

وهذه إن لم تكن على نمط البردة فإنها تدل على شغف هؤلاء الأدباء بالمدائح النبوية.

٢- **العشرينيات في مدح النبي عليه الصلاة والسلام:**

للوزير الفاضل ابن أبي زيد عبد الرحمن بن سعيد بن أحمد الفازازي، أنشأ عشرينياته هذه بحاضرة قرطبة بلاد الأندلس سنة ٦٠٤ هـ، وخمسها بعده الإمام أبو بكر محمد بن الصهيب من صحراء المغرب، ولما وصلت العشرينيات إلى بلاد السودان الغربي أقبل عليها العلماء والطلبة وكان ذلك منذ عهد مبكر تاريخ الإسلام في السودان الغربي واستمرت شهرتها حتى الآن. ومطلعها على هذا النحو:

© 2021 | Published by https://easpublisher.com/journal/yandoto/home

خليلي عوجا بالمحصب وانزلا * ولاتبغيا عن خيفه متحولا

فأكرم به مغني تحراه منزلا * أحق عباد الله بالمجد والعلا

نبي له أعلى الجنان مبوأ

ظهر أثرها في مؤلفات علماء القرن السابع عشر الميلادي من الذين روادوا الأدب العربي في هذه البلاد. يذكر منهم على سبيل المثال ابن الصباغ والشيخ محمد بن غم بن محمد بن عبد الله البرناوي أصلا والكشناوي مولدا ونشأة. وهذا الأخير كتب شرحا على العشرينيات بعنوان: "النفحات العنبرية في حل ألفاظ العشلاينية"[٢٨]. وفي القرن التاسع عشر الميلادي كان الشيخ عثمان بن فودي في مقدمة من تأثر بها وله منظومة يمكن تسميتها: "بعشرينيات الشيخ عثمان بن فودي" ومطلعها:.

أيا من له أعلا العلا متبوأ * أيا من له حجب الجلال توطأ

أيا من له وجه من الشمس أضوأ * أتيتك بالزلات إنك ملجأ

أغثني أجرني أنت من ذاك منشأ[٢٩]

فمن الواضح أن عثمان اتخذ قصيدة الفازازى مصدر لقصيدته وقد استعمل كثيرا من ألفاظ الفازاوي ومعانيه، ويظهر ذلك واضحا من مطلع قصيدتيهما. يقول الفازازي:

" نبي له أعلى الجنان مبوأ"

وقال عثمان:

"أيا من له أعلا العلا متبوأ"

وربما شيء يذكر في هذا الصدد أن الشيخ عثمان تكلف في مديحه البديع من حيث نظم القصيدة على ترتيب الحروف الهجائية فبدأ بالهمزة ثم الباء، ثم تاء، إلى أن انتهي بالياء.

والذي يراجع القصائد الشعرية لأدباء القرن التاسع عشر لا يزال يرى أثر العشرينيات فيها فمن معارضها، ومن محاكيها في الوزن والقافية، ولا يخالفها – وربما – إلا في حرف القافية، وخير من يمثل ذلك الشيخ العلامة عبد القدر بن عثمان الملقب بغطاطو بن ليم حيث قال:

شكرنا لمولانا على ما تفضلا * فقد أسبغ النعمى وأثني وأجزلا

لما طرد الكفار عن برم كلها * وأمكن للإسلام دارا ومنزلا

فأمسى به الأعداء من كل جانب * أذلاء محفوفين بالذل والبلا

وكانوا بنوا حصنا حصينا مموحا * فمن رامه كيدا هوى وتجدلا

وصل على المختار صفوة خلقة * وأفضلهم أزكى الصلاة وأكملا[٣٠]

فالواضح أن الشاعر وسع فكره من إيحاءات مطلع قصيدة الفازازه.

وأما محمد بلو قرأ من قول الفازازي "خليلي عوجا بالمحصف وانزلا" فتهيج شوقه للمحصب والحلول به فاتخذه موضوعا وأنشد قائلا:

إليكم بقلبي همه بمحصب * وإن كان جثماني تخلف في كب

وهل يبدون لي ذوطوى ويفاعة * فتنحج حاجتى وأحظى بمطلب

وهل في اجتماع الشمل للنفس مطمع فيلحق جثماني بقلب المغرب

به بيت مولانا الذي حف بارضى * يسح به صوب الندى خير صيب

به قلبه الإسلام قد عم فضلها * ونار حباها كل ناء وأقرب[٣١]

٣- دالية ابن حسن مسعود اليوسى.

هو شاعر شمال إفريقيا عاش في القرن السابع عشر الميلادي، مدح شيخه أبا عبد الله ناصر الدرعي في سنة ١٠٨٢م، فأصبحت داليته ينبوعا لعلماء القرن التاسع عشر من العلماء الجهاديين وغيرهم. فعبد الله بن فودي على سبيل المثال، وكان واحدا – كما هو معروف – من فطاحل العلماء، وفحل من فحول الشعر العربي في عهد الجهاد، له قصيدة تعد من عيون شعره، مدح بها أستاذه وأخاه الشيخ عثمان بن فودي ومطلعها:

عج نحو أضواج الأحبة من مج * واشرب من الأنشاج ماء الزعبج

هذه القصيدة من مطلعها نوافق قصيدة اليوسي في كل شيء، في الوزن والقافية والألفاظ والمعاني، اللهم إلا في حرف القافية فقط، قال اليوسي في مطلع قصيدته:

عرج بمنعرج الهضاب الورد * بين اللصاب وبين ذات الأرمد

وقال:

© 2021 | Published by https://easpublisher.com/journal/yandoto/home

فإذا مررت فحي حيّ إن هم * أذنوا إليك أو المنازل تردد

فقال عبد الله:

فإذا مرتَ مراتَ حيّ حيّهم * وانشر عليهم لؤلؤًا وزبردج

لم يقف عبد الله عند ذلك الحد بل تعداه إلى الأخذ من أوصاف اليوسي وأخيلته كلها مع تغيير بسيط. قال اليوسي يخاطب ممدوحه:

كم سنة أحييت بعد إماتة * وضلالة أخمدت بعد توقد

فقال عبد الله:

كم سنة أحييتها وضلالة * أخمدتها جمرا ذكى يتأجج

قال اليوسي:

مادوحة فيانانة أو روضة * بخميلة أو في يفاع أنجد

وقال عبد الله:

أو روضة ضحكت بها أزهارُها * تزهي بها عذبات غصن عسلج

أو عنقر أو جنة أو أنجم * بخميلة أو ربوة أو خندج[٣٢]

ولو قارنت القصيدتين لوجدتهما تسيران على هذا النمط. بهذا يظهر أن عبد الله بن فودي اعتمدا عتمادا كليا على قصيدة اليوسي لبناء قصيدته. وقد حقق هيسكيت ديوان عبد الله وأشار إلى هذه الظاهرة[٣٣].

خاتمة:

لا نعني بهذه العجالة أننا أحطنا بجميع المصادر التي اعتمد عليها علماؤنا في وضع قصائدهم الشعرية، إننا لا نزعم أنهم قصروا أنظارهم على العصر التركي فقط، بل إنهم تأثروا بكل ما وصل إليهم من كتب وقصائد، وما قرؤوا من الاستشهادات الشعرية الواردة في الكتب الفقهية والتاريخية وغيرها. والدارس للشعر العربي النيجيري خلال القرن التاسع عشر لا يخفى عليه أنهم تأثروا بالشعر الجاهلي في بناء القصيدة من الوقوف على الأطلال وذكر الأوابد، كما تأثروا بالشعر الإسلامي في الأفكار والمعاني. ولما تميز العصر التركي بالمدائح النبوية والزهد، وكان ذلك مما يعدونه قربة أخذوا منه بحظ وافر. ومما يذكر في هذا الصدد أنه على

الرغم من أنهم اعتمدوا على شعر من سبقهم لم يمنع ذلك من ظهور شخصياتهم، والتعبير عن مشاعرهم ووصف بيئتهم. والحق إن الشعر العربي النيجيري مع ما فيه من تقليد، فإنه شعر حافل بجميع العناصر الفنية وينعكس المجتمع النيجيري وبيئته.

قائمة الهوامش والمراجع:

[١] – بشير عثمان أحمد، قائمة بأسماء المخطوطات العربية صكوتو. (صكتو، دار الوثائق، مخطوط).

© 2021 | Published by https://easpublisher.com/journal/yandoto/home

[٢]– الفاخور، حنا، جامع تاريخ الأدب العربي. (بيروت: دار الجيل، ٢٠٠٥م)، ١٠٢٤.

[٣]– الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي. (ط/ ٢٥؛ د. تاريخ)، ص ٤٠٠.

[٤]– الفاخور، حنا، المصدر السابق. ص ما بين ص١٠٢٤ و١٠٢٩.

[٥]– الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، (السيد)، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. (بيروت – لبنان: دار الكتاب العربي، ١٩٦٥م)، ص ١٥١.

[٦]– الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، (السيد)، المصدر نفسه، ص ١٥٢.

[٧]– تكر محمد إنوا، الدراسة النقدية للشعر العربي النيجيري في القرن التاسع عشر. بحث تكميلي لنيل الشهادة الماجستير، (جامعة جوس، فبراير ١٩٩٧م)، ص ٢٣٧.

[٨]– شوقي ضيف، الفن ومذاهبه. (القاهرة، دار الفكر، ٢٠٠٤م)، ص ٥٠٩.

[٩]– الساسي، عمر الطيب، دراسات في الأدب العربي على مر العصور. (جدة: دار الشروق، ١٩٨٥م)، ص ٧٢.

[١٠]– الإسكندري، أحمد أمين والآخرون، المفصل في تاريخ الأدب العربي. (القاهرة: وزارة المعارف العمومية، د. تاريخ)، ج ٢، ص ٢٠٦.

[١١]– إنه بحث منشور في مجموعة بحوث، ضمن كتاب الأدب، إحياء لذكرى أستاذ الأدب العربي الراحل. محمد صالح الفرح، جامعة إبادن.

[١٢]– عبد اللطيف إبراهيم، "إعادة النظر في عوامل انحطاط الأدب العربي في العصر التركي" في مجلة (نتائس) جامعة بايرو: العدد ٦، (سبتمبر ٢٠٠١م)، ص ١٠٥ – ١٢١.

[١٣]– الفاخور، حنا، المصدر السابق. ص ما بين ص ١٠٢٥.

[١٤]– عبد الله بن فودي، (الشيخ)، ضياء الحكام. تحقيق: ابن محمد الفلاني، (القاهرة، طبعة الزاوية التيجانية، د. تاريخ)، ص ١٠٠.

[١٥]– علي أبوبكر، (الدمتور)، العربية في نيجيريا. (كنو – نيجيري: دار الأمة، ٢٠١١م)، ص ٢٤٦ – ٢٦٣.

[١٦]– المصدر نفسه، ص ٢٨٥ – ٢٩١.

[١٧]– العراقي، أحمد سيد، انتشار اللغة العربية في بلاد السودان عبر التاريخ. في مجلة دراسة أفريقية، المركز الإسلامي الإفريقي، العدد ١، (الخرطوم، شركة فال، ١٩٨٥م).

[١٨]– غلادنثي، شيخو أحمد سعيد، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا. (الرياض – شركة العبيكان، ١٩٩٣م)، ص ١٠١.

[١٩]– His meryn, the development of Islam in West Africa (London Logman, 1948) p 16.

[٢٠]– لمصدر نفسه، ص ١٧.

[٢١]– المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[٢٢]– الإسكندري، أحمد أمين وآخرون، المرجع السابق. ٢–ج ٢، ص ١٦٢.

[٢٣]– الإلوري، آدم عبد الله، (الشيخ)، الإمام المغيلي وجهوده. ()، ص ... وقد أظهر حسن إبراهيم غورظو شكه في نسبة هذه القصيدة إلى الشيخ المغيلي في رسالة الدكتوراه، بعنوان :

"Gwarzo Ibrahim Hassan, the life and Teaching of Al-Maghili: with particular reference to the Saharan Jewish community (University of London, 1972)".

[٢٤]– عبد الله ثقة، عطية المعطي. (نيجيريا، ألوسي، د. تاريخ)، ٣٥ – ٤٣.

[٢٥]– جنيد بن محمد البخاري، (الوزير)، إفادة الطالبين ببعض قصائد أمير المؤمنين. (جامعة بايرو كنو، المكتبة الرئيسية، المخطوط). ص ٣٥.

[٢٦]– المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[٢٧]– علي أبوبكر، (الدكتور)، المرجع السابق. ص ٢٧٩.

[٢٨]– محمد بلو، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور. (القاهرة: مطابع الشعب، ١٩٦٤م)، ٥٢.

[٢٩]– عثمان بن فودي، عشرينيات عثمان بن فودي. (جوس – نيجيريا: دار الآثار، مخطوط)، ص ٢٥.

[٣٠]– غطاطو، عبد القادر بن عثمان، الأنيس المفيد. (جامعة بايرو كنو، المكتبة الرئيسية، مخطوط)، ص ٢٩.

[٣١]– جنيد بن محمد البخاري، (الوزير)، المرجع السابق. ص ٥٦.

[٣٢]– عبد الله بن فودي، تزيين الورقات ببعض ما لي من الأبيات. (كنو، ألوسي، ١٣٨٣هـ)، ص ٢٠.

[٣٣]– هيسكيت مافين، تحقيق وترجمة وتعليق على تزيين الورقات لعبد الله بن فودي. (نيجيريا، مطبعة جامعة إبادن ١٩٦٣م).

© 2021 | Published by https://easpublisher.com/journal/yandoto/home